الينبوع

بقلم ابراهيم المصرى

كان الشيخ « آنى » رجلا ورعا تقيا، مشهورا فى مدينة طيبة بالعلم والحكمة كما كان مشهورا فى صناعة تلوين القماش • وكان يعيش فى قرية نائية ، ويسكن بيتا متواضعا صغيرا ، وينفق سحابة نهاره فى مطالعة الاسفار القديمة، أو الكتابة على ورق البردى ، أو مزاولة مهنته التى يحبها ، والتى كافأته بنت فرعون على تفوقه فيها بأن منحته قلادة ذهبية تحمل رسم الاله آمون •

وكان اذ يعكف على عمله ، يبدأ بتنظيف قطع القماش ، ثم يغمسها فى مواد ممتصة معينة ، ثم يلقى بها فى مرجل ، فتخرج القطع بعد فترة وجيزة ملونة تلوينا رائعا •

والعجيب فى أمره انه كان لا يضع فى المرجل غير لون واحد فقط • ومع ذلك فالاقمشة كانت تخرج مختلفة الالوان بفعل المواد الممتصة التى استخدمها •

والحق انه كان يهوى الحكمة بقدر ما يهوى فن تلوين القماش ، وكان يرى فى فن تلوين القماش رمزا لاختلاف صور الحياة وتنوع أحداث الزمن • لذلك كان يعشق فنه ، ويمعن فى اجادته ، ولا يفضى أبدا بأسراره الا لطائفة مختارة من أصفيائه ومريديه •

ففى ذلك المساء الصيفى الرقيق الذى تضوعت نسماته كالعطر وانتشرت فى مدينة طيبة ذات المائة باب ، كان الشيخ آنى قد فرغ من عمله ، وتربع على حصيرته ، ومضى يقلب فى اهتمام أسفاره وكتبه •••

وانهمك فى البحث والمطالعة فترة ، ثم رفع رأسه الاشيب ، وحدق بعينيه المستديرتين الحادتين الى صفيه ومريده المفضل الشاب « انوبيس » الذى كان يتطلع اليه ملهوفا ويلهث ••

واتأد الشيخ وتسارعت دقات قلبه ولكنه ابتسم • ابتسم ابتسامة متهللة وظافرة، ثم مال الى الشاب فجأة، وقال فى صوت واضح المخارج باتر النبرات:

ـ أنا واثق ••• واثق يا بنى مما ذكرته لك ! •• الكتب القديمة التى وضعها أسلافنا لا يمكن أن تكذب • ولقد قرأتها جميعا • قرأتها بامعان • ولقد كان فى وسع غيرى أن يهتدى الى مااهتديت اليه أنا • ولكن الناس لاصبر لهم على العلم • وهم يتعجلون المعرفة ، ويؤثرون الأخذبالرأى الشائع على البحث

عن حقيقة جديدة فذة يتفوقون بها على أنفسهم، ويفرضون بوساطتها سلطانهم البشرى على هذه الحياة ·· وأنا يابنى أشعر أبلغ شعور وأعمقه ان أوزيريس قد رضى عنى ، وان العلم قد استجاب لصبرى ، وانى قد كشفت النقاب عن سر عظيم ، وأصبح فى مقدورى ان أفرض سلطانى على حياتى ، وان أصوغ من جوهرها مادة فرح ونعيم ! ·· ولكنى يا بنى شيخ فى السبعين ، انهك العلم بدنى ، واستنفدت الايام عصارتى ، ولم يعد فى جعبة قواى سهم واحد أصوبه الى هدفى وأحقق به الكشف العظيم الذى اهتديت اليه ! ·· فاليك أنت ، أنت تلميذى ومريدى وأحب الناس الى ، أفضى بدخيلة نفسى ، وأميط النقاب عن سرى ، وآمل أن يتحقق حلمى يوما على يديك ! ··

فانحنى الشاب أمام أستاذه فى احترام ، وتناول طرف ثوبه الابيض وقبله ، ثم صاح وهو يرتجف :

ـ تكلم ··· تكلم يا مولاى ·· وثق أن ارادتى لن تنفصل أبدا عن عقلى ، وان هذه الارادة التى أذكيتها أنت بنار فكرك ، ستظل وفية لوحيك ، تتبعك وتطيعك ، ، وتؤمن بان الحقيقة الكبرى تصدر عنك وتتمثل فيك !

فحدق اليه الشيخ مرة ثانية ، ولمعت عيناه ، وتماوجت الغضون الكثيفة فى وجهه المشرق · فلم يتمالك نفسه وطوق الشاب بذراعه وهمس فى أذنه وهو يختلج :

ـ يا انوبيس الحبيب ··· انصت ··· لقد اهتديت ··· اهتديت الى سر السعادة ·

ففغر الشاب فاه ولم يفهم· فاستطرد الشيخ :

ـ أقول انى اهتديت الى سر السعادة ··· كشفت لى عنه كتب أسلافنا ··· سر السعادة ·· أتفهم ؟ ··· السعادة الارضية التى ينشدها الجميع ويتهافت الكل عبثا عليها ··· فارهف السمع يا انوبيس واجعل من أذنك فما ظامئا ومحموما ·· لقد عثرت ··· عثرت على كتاب قديم ·· قديم وفريد ·· كتاب يقول صاحبه ويؤكد ان فى مدينتنا ·· فى مدينتنا هذه ··· فى طيبة الكبيرة المقدسة ·· ينبوع ماء ·· ينبوعا صغيرا ·· خفيا ·· يكمن فوق ربوة صخرية عالية مندلعة كالسهم ، ينهض بجوارها كوخ مهدم ··· هذا الينبوع ياانوبيس يتفجر بماء قراح ·· ماء سحرى باركته الآلهة ·· ماء لو شرب منه الانسان ولو رشفة واحدة ، لم يعرف الرغبة الجامحة، ولاالشهوة العاتية ، ولا الطمع القاسى ، ولا ذل الفقر ، وخيبة الحب ، وحسرة المرض ، ولوعة الفراق ساعة الموت ! ·· رشفة واحدة من ذلك الينبوع يا انوبيس تغمر العقل حكمة ، والبدن صحة ، والقلب راحة ، والنفس ايمانا وصفاء ونشوة ! ··· هذا هو الكشف العظيم الذى اهتديت اليه ··· وأنا لم أفض به اليك أنت ، أنت يا انوبيس ، الا حبا فيك ، وايثارا لك ، وثقة فى ارادتك ، ويقينا من ولعك بالتفوق والاستعلاء والبحث عن كل حقيقة فذة اينما وجدت ! ·· فاذا كنت حقا ذلك المريد الذى وضعت فيه أملى، واصطفيته ابنا لفكرى وروحى ، فاحزم أمرك يا انوبيس منذ الساعة واذهب ··· غادر قريتنا ولا تلتفت الى الوراء ··· لاتفكر فى أهلك الذين يحبونك ولا فى

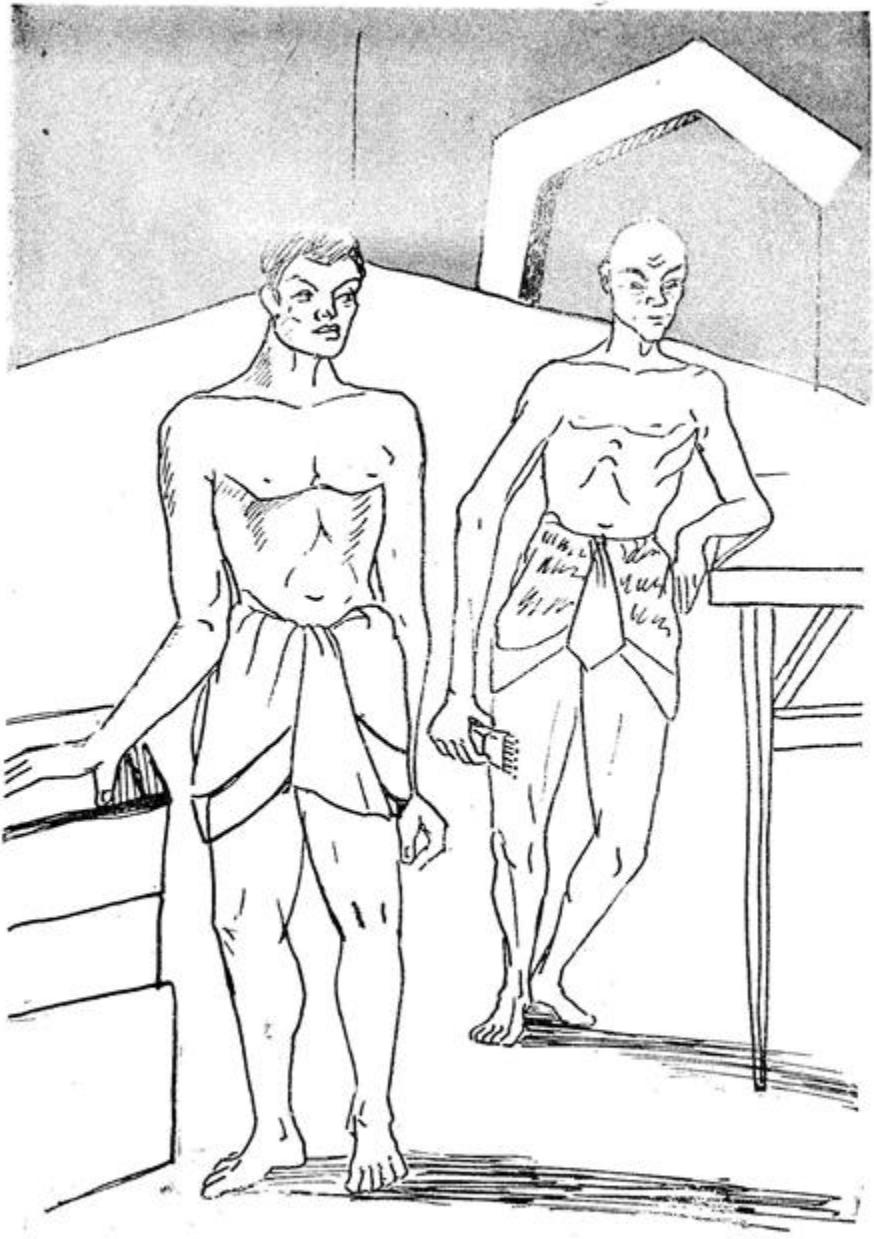

خطيبتك التى تحبها ·· ضع الهدف العظيم نصب عينيك واذهب ·· اضرب على الفور فى احشاء المدينة وأطرافها ، وابحث عن الينبوع واشرب منه ··· اشرب من مائه القراح ، وعش، وتفوق، وكن سعيدا ! ··

فذهل الشاب وتولته رعدة · لبث لحظة ساهما شاردا مأخوذا ، يتفرس فى أستاذه الشيخ تارة ، وينعم النظر فى كلامه أخرى ويتأمل ··

وخلبته روعة الكشف العظيم · فتمثل الربوة العالية ، والكوخ المهدم ، والينبوع الصغير · وتصور نفسه وقد عب فى ذلك الماء السحرى المقدس ، انسانا لاتزعجه الغرائز ، ولا تنال منه الكوارث ، ولا يقوى عليه قانون الحياة· انسانا فذا خارقا ، صافيا محلقا ، راتعا فى سعادة كسعادة الأرباب · فاستبدت به اللهفة ، وأخذته الجرأة ، وملكته حماسة الشباب · فلم يتردد ، ونهض واثبا وهتف :

ـ سأجوب المدينة كلها ! ·· لن يقر لى قرار حتى أتغلغل فى كل ضاحية، وانفذ الى كل قرية ، وأخترق كل درب وكل زقاق ! ·· فامنحنى بركتك يا أبت ، واتل صلاتك اليوم من أجلى · ابتهل الى الآلهة جميعا عساها ان تكلأنى بعين عنايتها وتقوينى وتنصرنى !

فبسط الشيخ ذراعه على رأس مريده وقال :

ـ أيها الثعبان « أباب » يا رمز الفطرة الضعيفة ، والخوف والتردد والشر وجميع النقائص المتأصلة فى أعماق الجسد ، انعقد على نفسك ، وانكمش فى حسرة عجزك ، وانسحق تحت قدمى انوبيس ، ومت قبل أن تصيبه بأى أذى ! ··

فتهلل وجه الشاب ، وعانق أستاذه فى صمت · ثم تقبل منه البركة وهو يرتعش ، ثم لثم يديه وأطراف ثوبه وفتح الباب وخرج ··

***

خرج وهو مبهوت · خرج وهو منجذب وتائه ··· وكان يحب أهله ، ويقدس بل يعبد خطيبته الحسناء « تايا » ، ذات الرقة الشائقة ، والملاحة الفاتنة ، والخفر العذب الآسر الخلاب · فنازعته نفسه أن يعصى أمر أستاذه ، وأن يذهب أولا فيودع أهله ويودع الفتاة · ولكنه خاف من عواطف القربى، وارتعد فرقا من حنان الحب · أحس انه لو أبصر أهله فلا بد أن يتردد ، ولو التقى بتايا الجميلة فلا بد أن يبكى ويعدل عن الرحيل· فلم يشأ أن يضعف ويخيب أمل أستاذه فيه · فلاذ مسرعا باللهفة التى كانت مستحوذة عليه وطفق يحدق ·· يحدق الى حلمه الخارق فقط ··· وكان حلم السعادة يبهر عقله ، وطيف الينبوع يحتل فكره ، وخيال الصفاء الرائع المنشود يضرم فى بدنه وقدة الحمى ، ويحمله على أجنحة من نار ونور ··

وأبى أن يرى أحدا ، أو يخاطب أحدا ، أو يفكر فى أحد ·

وبدل أن يسلك طريقه اليومى ، ذلك الطريق الشرقى المؤدى الى داره ودار خطيبته ، غالب نفسه ماستطاع ، وأهاب بارادته وعزمه ، وسلك الطريق الغربى المعارض المفضى الى قلب مدينة طيبة ذات المائة باب · وهناك تنكر فى

زى درويش خشـــية أن يعـرفه أهله وصحبه، ثم تزود بشيء من الخبز والجبن والفاكهة ، وحمل جعبتـه على ظهره ، وانطلق يضرب فى ارجاء المدينة ..

شرع يسـتفسر ويبحـث ويتغلغـل ويجوب ..

شـده المجهول الى جـواده الذهبى الجـامح ، ثم أحاله الى طائر من تلك الطيور النازحة التى لاتعرف فى هجرتها الوناء . أسـكرته الحـرية ، وفتنـه التشرد ، وملك عليـه قلبه وحواســه تعقب السر ومطاردة الحلم ..

كان يقف تجـاه الشـمس الساطعة ويهتف بهـــا قائلا : « ان اوزيريس العظيم هو انت يا خالقة الحياة والسرور ويا سيدة الارباب . فهل استطاع أن أسير كما تسيرين بدون توقف ؟ ... وهل فى وسعى أن أخترق الفضاء مثلك فى لحظة ؟ ... أعينينى أيتها القوة الدائمة الوجود واشفقى على ! ... »

ومضى يتضرع الى الشمس المعبودة ويمشى.. لم يترك ضاحية الا وهبطها، ولا قرية الا وسلكها ، وزقاقا أودربا الا وارتمى فيه. ولكنه لم يعثر على الينبوع

لم يعثر على الينبوع ولم ييأس فى الوقت نفســه من العثور عليه . كان يعلم ان الجهاد يجب أن يكون على قدر الغاية . فعاد يضرب فى المدينة كأنه لم يعرفها ، وعاد ينبش بطنها العامر واحشاءها المثقلة، معللا نفسه باستحالة الفشل بعد طول الجهاد .

وظل يبحث ويستفسر ويمشى ... ظل يقـاوم ويكافح ويخاطب الشمس ويستصرخ اوزيريس ...

ولـكن الايام تعاقبت ، والاشـــهر ترادفت ، والسنين انصرمت ، وانوبيس كان مايزال يمشى ...

لم يضـق ذرعا بصبره . لم يتبرم فترة بجهاده . كان يشتغل تارة حمالا ، وتارة حطابا ، وأخرى فلاحا أجيرا أو حارسا على المذاود أو صوامع الغلال .

وكان يتعطـل الاسابيع بطولها فـلا يتململ ، بل يشد حزامه على بطنه ، ويظل متنقلا من شارع الى شارع ، ومن ضاحية الى أخرى ، هائما على وجهه ، ممعنا فى طوافه ، يستفسر مرة بعـــد مـرات ، ولا يفتـأ يستفسر ويبحث ويمشى ..

وقاسى مرارة الفقر والجوع والذل ، ثم أعياه البحث وأضناه الطواف ، فرزح تحت وطأة الزمن وهو لا يدرى ..

ابيض شعره، وهزل بدنه، واحدودب ظهره ، واستقطر منـه حلمه الغاشـم عصارة القوة والشباب .

أحس ان الحظ قد خانه ، وان الزمن قد أكله ، وانه قد استحال من قناص الى فريسة . فهاله أمله الخائب ، وصباه الضـائع ، وجهاده الباطل ، وانتابته ضربة من الحسرة المخامرة أوشـكت أن تبتليه بمس من خبال ...

أيقن ان أستاذه الشيخ قد مات وهو ينتظره . فاسودت الدنيا فى عينيه ، وتخبط وانهار عزمه ، وفكر مكرها فى الخضوع والتسليم .

أراد أن يرى تايا حبيبته .. ان يكر راجعا الى بيته ... ان يقبع ساكنا فى ظلمة جحره وان يقر هونا ويستريح . ولكنه لم يستطع . عز عليه أن يتقهقر. كبر عليه أن ينهزم بعد أن أراق دم العمر كله فى الجهـاد . فاستمسـك

بكبره ، وتشبث بعزمه ، وعاد يجوب أنحاء المدينة ، ويبحث ويستفسر ، حتى ضج الناس منه ، واسترابو بعقله ، وأوصدوا أبوابهم فى وجهه ، وشرعوا يذيعون انه مجذوب ومجنون ٠

وخشى بالفعل أن يجن ٠ فارتعدت فرائصه ذعرا ٠ فطوى قلبه على حلمه مقهورا ، وطأطأ الرأس صاغرا ، ثم تحامل على نفسه ذات مساء ، وودع المدينة الكبيرة الغادرة ، واتجه نحو قريته ، وسلك الطريق القديم ٠٠٠ الطريق الشرقى ٠٠ الطريق المؤدى الى بيته وبيت تايا ٠٠٠

وظل يمشى الساعات الطوال، متوكئا على عصاه ، حاملا جعبته على ظهره ، يستجدى ربات البيوت بعض كسرات من الخبز ، ويفكر فى تايا الجميلة ، ويذكر أهله وصحبه ، ولا يدرى من منهم قد بقى حيا ، ومن منهم قد تعب وتضجر ومات ٠٠٠

وأناخ عليه الليل وهو يمشى ٠ فأحس انه مجهد منهوك ٠ فأراد أن يحط رحاله تحت شجرة ٠ ولكن الليلة كانت صافية ، والنجوم لامعة ، والنسيم عذبا رخيا ٠ فأنعشه الجو وأثمله ٠ فاندفع واستطرد المسير ٠

وشيئا فشيئا ، وعلى ضوء القمر الساطع ، لاحت أمامه القرية التى نشأ فيها ، والبيوت التى عرفها ، والحقول والبساتين التى شاهدت فجر حياته ٠ فخفق قلبه وأنعم النظر أيضا ٠ فلمح بيته ٠٠٠ داره ٠٠٠ داره العزيزة الصغيرة الأليفة ٠٠ وبالقرب منها الدار الفسيحة الاخرى ٠٠٠ بيت الفتاة الشائقة الحسن تايا، التى كانت بالامس خطيبته وأصبحت اليوم ولا ريب زوجة رجل سواه ٠٠

وشخص الى الدار الفسيحة لحظة وغمغم : « أتراها ماتزال هنا أم انها ذهبت لتعيش فى كنف زوجها ؟ ٠٠٠ كيف هى الآن ، وكيف هم أولادها ، أولادها الذين كان يمكن أن يكونوا اليوم أولادى أنا ؟! ٠٠٠ »

وانهمر الدمع من عينيه٠ ولأول مرة، لأول مرة منذ طفولته السحيقة النائية ، تشجع وانسل الى البستان الصغير الفاصل بين بيته وبيت الفتاة ٠ ثم دنا من بيتها ، ودار حوله ، واقتحم الارض الفضاء حيث ينهض الجناح النسوى الذى كانت تعيش فيه تايا وأمها وأخواتها ، والذى كان محرما عليه وعلى أى غريب ان يدنو منه ٠

اقتحم تلك الرقعة من الارض الفضاء التى غابت معالمها عن ذهنه والتى لم يرها الا وهو طفل ، ثم اتجه نحو الجناح النسوى ، وأشرأب بعنقه الى احدى نوافذه ٠ فألفاها مفتوحة ٠ فتطلع اليها وملأ نفسه الأمل فى أن تكون حبيبته هنا ، وان تكون مستيقظة ٠ فيستطيع أن يلمحها قبل أن يتحول ويدخل داره ٠

واذ ذاك ، وبينما هو جاثم فى تلك الرقعة المحرمة ، يتطلع الى النافذة المفتوحة ويلتقط أنفاسه ويرتجف ، سمع صوتا بعيدا ٠٠ صوتا خفيفا ٠٠ صوتا غريبا رتيبا لم يسمعه أبدا ٠٠٠ صوتا ترامى اليه من أقصى الارض الفضاء التى لم يعرفها ، وصافح أذنيه فى غمغمة تشبه الهمس أو الوسوسة أو الانين ٠٠٠ فانصت لحظة وهو يرتعش، ثم أرهف السمع أيضا وقلبه يخفق ،

ثم تراجع بغتة مسلوب العقل طائر اللب ، اذ تأكد ان الصوت البعيد القريب هو صوت خرير ماء ...

ولم يكد يتأكد حتى أسرع وتحول عن النافذة ثم استدار واندفع كمعتوه . ضرب فى الارض الفضاء ، واتجه نحو منطلق الصوت ، وطفق يعدو فى ضوء القمر الساطع ، مجتازا حقلا صغيرا لم تطأه قدماه ، ومخترقا أشجار كثيفة لم يكن يعلم بوجودها فى تلك الناحية ، ومتعقبا جهده مرمى الصوت الرتيب الخفيض الذى كان ما يفتأ يوسوس له كأنه يدعوه .

وفجأة ، وعلى ضوء القمر ، وفى هدأة الليل الزافر ، أبصر نفسه فى مكان غريب ، مكان موحش مهجور ، مكان تنبثق فى زواية منه ربوة ... ربوة صخرية عالية.. ربوة مندلعة كالسهم، ينهض بجوارها كوخ مهدم ! .. فحدق انوبيس الى الربوة وجمد . حدق اليها وصعق . لمح الينبوع ... لمح الينبوع يهدر فى قمتها ويتفجر منه الماء . فجحظت عيناه دهشة وذهولا ، وانفطر قلبه فرحا ولوعة ، وأيقن وهو يرجف ان هذه الربوة هى التى حدثه عنها أستاذه، وان الينبوع، ينبوع السعادة، الينبوع الذى قضى العمر كله فى البحث عنه ، كان هنا ... على مقربة منه .. فى متناول يده .. بجوار بيته وبيت حبيبته تايا ... ومع ذلك فقد اختبل عقله ولم يفهم .. لم يشأ أن يفهم ... عز عليه أن يفكر ويفهم ... ثار غضبه واستنكاره وحنقه . وبكل ما أوتى من قوى الحسرة ، بكل ما أوتى من قوى الكمد واللوعة وارادة الثأر لعار اليأس وذل الهزيمة ، صرخ وهو يتحفز : « أعنى يا اوزيريس ! ... »

وارتمى على الربوة كوحش كاسر وشرع يتسلقها .

وأنشب أصابعه فى الرمل والصخر وهو يزمجر . فأعمى الرمل عينيه ، ومزق الصخر يديه وركبتيه وقدميه . ولكنه صعد ... صعد وهو يلهث ... صعد وهو يجأر ... صعد وأبصر الماء ... أبصر الماء السحرى المقدس يتفجر هادرا من قلب الينبوع . فمد يده ، يد الكهل الضامرة ، يد الكهل المرتعشة الدامية ، وحاول ان يمس الماء .. وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة المنشودة المروعة ، وقبل أن يستشعر طراوة الماء الحى ويهم بأن يغترف منه ليشرب ، ماج الكون فى عينيه ، وطوح به دوار مظلم . فتشبث بالصخر جهده . ولكن الدوار استغرقه وختم على بصره . فتصدع فترة وترنح ، ثم خارت قواه ، وانفرط الرمل تحت قدميه . فأرسل صرخة ممزقة ، وهوى من حالق ، وسقط على الارض يتخبط فى دمه ! .

وظل يحدق الى الربوة لحظة ثم حول بصره الى الفضاء الاصم الجامد ، ثم رفت عيناه البائستان المقهورتان، واختلج اختلاجا عنيفا وأسلم الروح .

واذ ذاك ، وقع شىء عجيب ، شىء خارق ، شىء لم يكن فى الحسبان أبدا ... خفت صوت الينبوع ، ثم اختنق هديره، ثم تحول ماؤه فجأة عن مجراه . وطفق الماء يتسلل ويتلاقى ، وينسكب خيوطا فضية رقيقة على جثة البطل الصريع ...